٣ - الغزالى ومعاركه الفكرية

لا شك أنك أخذت صورة عن حياة الغزالى . . صورة سهلة ومبسطة . . ومن خلال هذه الرحلة رأينا أنفسنا أمام شخصية ممتازة نادرة . . أهدت للإنسانية كل ما هو جدير بالحياة . .

لقد أخذنا صورة عن حياته . .

وكيف درس كل علوم العصر . .

وكيف هاجم هذه العلوم . .

ووجد أن الطريق السليم هو الطريق إلى اللَّه . .

فاللَّه هو الحقيقة الكبرى . .

ومؤلفات الغزالى غزيرة . . ومتعددة . . وأشهرها بلا شك هو كتاب «إحياء علوم الدين» . . وهذا الكتاب من الضخامة بمكان . . ومن الصعب تلخيصه . . كما أنه كتب بلغة راقية جميلة . . كأنها لغة هذه الأيام . . ولأن موضوع الكتاب متشعب . . ويطرح فيه الكثير من القضايا ويجيب عنها . . فإننا هنا - ما دام من الصعب تلخيصه - نشير إليه إشارة من بعيد . . نعطى للقارئ صورة عن هذا الكتاب الذى ترك وما زال آثارًا عظيمة عبر التاريخ الإسلامى . .

إنه فى هذا الكتاب يعطيك صورة عن نظرة الإسلام لمختلف أمور الحياة . . فى الشرع . . فى علاقاتك مع نفسك . . فى علاقاتك مع

اللَّه . . فى علاقاتك مع الآخرين . . إنه موسوعة هائلة من أعظم ما أنتج العقل الإنسانى . .

وما دام من المتعذر أن نعطى موجزًا عنه فى سطور . . فلنسبح مع الغزالى قليلاً فى بحور هذا الكتاب . .

ومن المعروف أن الغزالى ألف هذا الكتاب بعد أن ترك بغداد . . أى أنه ألفه بعد أن نضج عقليًا . . واستوعب علوم عصره . . وخاض حروبه مع الفلاسفة ، وعلماء الكلام . . وعلماء الدين . . والباطنية . . وبعد أن انكشفت أمامه أنوار الهداية . . فقد جاء هذا الكتاب بعد معاناة فلسفية وفكرية . .

وهو كتاب عظيم بلا شك . .

ولقد غالى البعض فى مدحه حتى قالوا إنه يكفى أن يقرأ الإنسان فى هذا الكتاب ويستغنى عن أى كتب أخرى . .

وطبعًا هذه المغالاة نرفضها . .

إنه عالم عظيم اجتهد وأفاد . .

ويمكن أن يخالف فى بعض آرائه ، ولكن هذا الكتاب من الكتب الهامة جدًا بلا شك . .

وهو يوضح فى مقدمة هذا الكتاب الهدف من تأليفه فيقول :

« فأدلة الطريق هم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء ، وقد شغر منهم الزمان ، ولم يبق إلا المتمرسون ، وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان ، واستغواهم الطغيان ، وأصبح كل واحد يعاجل حظه

مشغوفًا ، فصار يرى المعروف منكرًا والمنكر معروفًا ، حتى ظل علم الدين مندرسًا ، ومنار الهدى فى منطقة الأرض منطمسًا ، ولقد خيلوا الخلق أن لا علم إلا فتوى حكومة تستعين به القضاء على فصل الخصام بينها وبين الطغام . . أو الجدل يتذرع به طالب المباهاة لى الغلبة والإفحام ، أو سجع مزخرف يتوسل به الواعظ إلى استدراج العوام ، إذ لم يروا ما سوى هذه الثلاثة مصيدة للحرام . . وشبكة للحطام . .

فأما علم طريق الآخرة ، وما درج السلف الصالح مما سماه اللَّه - سبحانه وتعالى - فى كتابه فقهًا وحكمة وعلمًا وضياء ونورًا ، وهداية ومرشدًا ، فقد أصبح من بين الخلق مطويًا ، وصار منسيًا ، ولما كان هذا ثلمًا فى الدين ملمًا وخطبًا مدلهمًا فرأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مهمًا لإحياء علوم الدين ، وكشفًا عن مناهج الأئمة المتقدمين ، وإيضاحًا لعناصر العلوم النافعة عند النبيين والسلف الصالح» . .

واضح من هذه المقدمة أن المؤلف الإمام الغزالى يريد من تأليفه هذا الكتاب «إحياء علوم الدين» . . إحياء العلوم المتصلة بالدين حتى يفهمها الناس ، ويفهموا أمور دينهم عن قرب وعن وعى . . بعد أن رأى بُعْد العلماء من تحقيق هذه الرسالة واستغراقهم فى البحث عن الكلمات الجوفاء المنمقة يتملقون بها مشاعر العامة أو يرضون بها أهواء الحكام . .

لقد انبرى الغزالى كثائر ليوضح للناس حقائق دينهم . . ويهاجم خصوم الدين من الفلاسفة . . والمتقاعدين عن نصرته من رجال الدين . . وكان ذلك دافعًا لأن يؤلف هذا الكتاب الضخم الذى تتجاوز صفحاته أكثر من ثلاثة آلاف صفحة من القطع الكبير . .

لنطف إذن من هذا الكتاب المهم بعض صفحاته . . ولنختر منها بعض النماذج . . حتى يتيسر لقارئ هذا الكتاب أن يلتقى مباشرة مع الغزالى . . وأن يعيش مع فكره . . وسوف يشعر بعمق المعانى وبجمال الأسلوب . . وبرهافة حس حجة الإسلام الغزالى . .

ولن تكون رحلتنا مع أفكار هذا الكتاب مرتبة حسب أجزائه . . بل سوف تكون هذه المختارات مترابطة مع منهج هذا الكتاب . . حيث نطوف مع المؤلف معًا حول حديثه عن الرسول ﷺ وأخلاقه وصفاته . . ومعاملاته للناس . . وسوف نرى أنفسنا كأننا نقرأ قصة جذابة مترابطة الخطوط والأحداث . . رغم أن هذه كتبه فى الجزء السابع من الكتاب . . ثم نسير فى رحلتنا بعد أن نقف عند الرسول العظيم . . لأنه معلمنا ونبينا ورسولنا وقدوتنا ومثلنا الأعلى . .

ثم بعد ذلك نطوف مع الأحياء فى أهم الموضوعات التى ناقشها . . لأن هذه الموضوعات مستمدة أصلاً من القرآن الكريم . . ومن سنة الرسول ﷺ . .

ونحن بهذا المنهج لا نخرج عن الخطوط التى وضعناها لتأليف هذا الكتاب . . لأن هذا الكتاب ليس مجرد رحلة فى عقل الغزالى . .

بل أيضًا رحلة عما انطبع فى عقل الغزالى من أفكار . . وهذه الأفكار استمدها من الإسلام . . فحديثنا عما كتب من أفكار فى هذا الكتاب وغيره يقرب الصور أكثر من الرجل ومن أفكاره . . ومن مسيرة حياته أيضًا . .

إنه يأخذنا فى رحلة شائقة عن تأديب الله تعالى حبيبه وصفيه محمد ﷺ بالقرآن فيقول:

« كان رسول الله ﷺ كثير الضراعة والابتهال ، دائم السؤال من الله - تعالى - أن يزينه بمحاسن الآداب ومكارم الأخلاق ، فكان يقول فى دعائه:

اللهم حسن خَلقى وخُلقى . .

ويقول:

اللهم جنبنى منكرات الأخلاق ، فاستجاب اللَّه دعائه وفاء بقوله عز وجل : ادعونى أستجب لكم فأنزل عليه القرآن ، وأدبه ربه فكان خلقه القرآن . .

قال سعد بن هاشم : دخلت على عائشه رضى الله عنها وعن أبيها فسألتها عن أخلاق رسول الله ﷺ فقالت : أما تقرأ القرآن؟؟

قلت : بلى . .

قالت : كان خلق رسول الله ﷺ القرآن . . وإنما أدبه القرآن بمثل قوله تعالى:

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وقوله:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠].

وقوله:

﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

وقوله:

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

وقوله:

﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣].

وقوله:

﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢].

وقوله:

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

وقوله:

﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وقوله:

﴿ اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً ﴾ [الحجرات: ١٢].

ولما كسرت رباعيته ، وشج وجهه يوم (أحد) . . فجعل الدم يسيل على وجهه وهو يمسح الدم ويقول:

« كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم؟؟» . .

فأنزل اللَّه تعالى:

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

تأديبًا له على ذلك ، وأمثال هذه التأديبات فى القرآن لا تحصر ، وهو عليه الصلاة والسلام المقصود الأول بالتأديب والتهذيب . .

ثم منه يشرق النور على كافة الخلق . . فإنه أدب بالقرآن . . وأدب الخلق به ، ولذلك قال ﷺ :

« بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ».

ثم رغب الخلق فى محاسن الأخلاق بما أوردناه فى كتاب «رياضة النفس وتهذيب الأخلاق» فلا نعيده . .

ثم لما أكمل الله تعالى خلقه أثنى عليه فقال تعالى:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

فسبحانه .. ما أعظم شأنه ، وأتم افتنانه ، ثم انظر عميم لطفه وعظيم فضله .. كيف أعطى ثم أثنى ، فهو الذى زينه بالخلق الكريم، ثم أضاف إلى ذلك فقال:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

ثم بين رسول الله ﷺ أن الله يحب مكارم الأخلاق .. ويبغض سفاسفها..

قال على رضى الله عنه:

« يا عجبًا لرجل مسلم يجيئه أخوه المسلم فى حاجة فلا يرى نفسه للخير أهلاً .. فلو كان لا يرجو ثوابًا ولا يخشى عقابًا .. لقد كان ينبغى له أن يسارع إلى مكارم الأخلاق .. فإنها مما تدل على سبيل النجاة .. فقال له رجل: أسمعته من رسول الله ﷺ ؟ فقال : نعم.. وما هو خير منه ، لما أتى بسبايا (طىء) .. وقفت جارية فى السبى فقالت : يا محمد، إن رأيت أن تخلى عنى .. ولا تشمت بى أحياء العرب .. فإنى بنت سيد قومى وإن أبى كان يحمى الذمار .. ويفك العانى .. ويشبع الجائع .. ويطعم الطعام ويفشى السلام .. ولم يرد طالب حاجة قط .. أنا ابنة حاتم الطائى ..

فقال ﷺ :

«يا جارية هذه صفة المؤمنين حقًا . . لو كان أبوك مسلمًا لترحمنا عليه . . خلو عنها . . فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق» . .

فقام أبو بردة بن نيار فقال:

« يا رسول الله، اللّه يحب مكارم الأخلاق؟» . .

فقال:

« والذى نفسى بيده لا يدخل الجنة إلا حسن الأخلاق ».

وعن معاذ بن جبل عن النبى ﷺ قال:

« إن الله حف الإسلام بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال . . ومن ذلك حسن المعاشرة ، وكرم الضيافة . . ولين الجانب . . وبذل المعروف . . وإطعام الطعام . . وإفشاء السلام . . وعيادة المريض المسلم برًا كان أو فاجرًا . . وتشييع جنازة المسلم . . وحسن الجوار لمن جاورت مسلمًا كان أو كافرًا . . وتوقير ذى الشيبة المسلم . . وإجابة الطعام . . والدعاء عليه . . والعفو والإصلاح بين الناس . . والجود والكرم . . والسماحة والابتداء بالسلام . . وكظم الغيظ . . والعفو عن الناس . . واجتناب ما حرمه الإسلام من اللهو والباطل والغناء والمعازف كلها . . وكل ذى وتر . . وكل ذى دخل . . والغيبة والكذب والبخل . . والشح . . والجفاء . . والمكر . . والخديعة . . والنميمة . . وسوء ذات البين . . وقطيعة الأرحام . . وسوء الخلق . . والتكبر . . والفخر . .والاختيال . . والاستطالة . . والبذخ . .

والفحش والتفحش .. والحقد والحسد .. والبطرة والبغى والعدوان.. والظلم»..

قال أنس : فلم يدع نصيحة جميلة إلا وقد دعانا إليها وأمدنا بها.. وأمرنا بها ولم يدع غشا .. أو قال عيبًا .. أو قال شيئًا إلا حذرناه ونهانا عنه .. ويكفى من ذلك كله هذه الآية:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠].

قال معاذ:

«أوصانى رسول الله ﷺ فقال:

يا معاذ أوصيك باتقاء اللَّه .. وصدق الحديث .. والوفاء بالعهد.. وأداء الأمانة .. وترك الخيانة .. وحفظ الجار .. ورحمة اليتيم .. ولين الكلام .. وبذل السلام .. وقصر الأمل .. ولزوم الإيمان .. والثقة فى القرآن .. وحب الآخرة .. والجزع من الحساب.. وخفض الجناح .. وأنهاك أن تسب حكيمًا .. أو تكذب صادقًا .. أو تقطع آثمًا .. أو تعصى إمامًا عادلاً .. أو تفسد أرضًا.. وأوصيك باتقاء الله عند كل حجر وشجر ومدر .. وأن تحدث لكل ذنب توبة ، السر بالسر .. والعلانية بالعلانية»..

فهكذا أدب عباد الله .. ودعاهم إلى مكارم الأخلاق .. ومحاسن الآداب..

ونمضى مع الإمام الغزالى . . وهو يحدثنا عن محاسن أخلاق النبى ﷺ كما جمعها بعض العلماء . . والتقطها من الأخبار . . فنرى أنفسنا أمام صورة مشرقة رسمها لنا هذا العالم الجليل عن أخلاق النبى وفضائله . .

«كان ﷺ أحلم الناس . . وأشجع الناس . . وأعدل الناس . . وأعف الناس . . لم تمس يده قط يد امرأة لا يملك رقها . . أو عصمة نكاحها أو تكون ذات محرم منه . .

وكان أسخى الناس لا يبيت عنده دينار أو درهم . . وإن فضل شيئًا ولم يجد من يعطيه وفجأه الليل . . لم يأو إلى منزله حتى يتبرأ منه إلى محتاج إليه . . لا يأخذ مما أتاه اللّه إلا قوت عامه فقط من أيسر ما يجد من التمر والشعير . . ويصنع سائر ذلك فى سبيل الله . . لا يسأل شيئًا إلا أعطاه . . ثم يعود على قوت عامه فيؤثر منه حتى ربما احتاج قبل انقضاء العام إن لم يأت شىء . .

وكان يخصف النعل . . ويرقع الثوب . . ويخدم فى مهنة أهله، ويقطع اللحم معهن . . وكان أشد الناس حياء . . لا يثبت بصره فى وجه أحد . . ويجيب دعوة الحر والعبد . . ويقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن . . أو فخذ أرنب . . ويكافئ عليها . .

عرض عليه الانتصار بالمشركين على المشركين . . وهو فى قلة وحاجة إلى إنسان واحد يزيده فى عدد من معه فأبى . . وقال أنا لا أنتصر بمشرك . . ووجد من فضلاء أصحابه وخيارهم قتيلاً بين

اليهود.. فلم يخف عليهم .. ولا زاد على مر الحق .. بل فداه بمائة ناقة .. وإن بأصحابه لحاجة إلى بعير واحد يتقون به..

وكان يعصب الحجر على بطنه من الجوع . ويأكل ما حضر ولا يرد ما وجد .. ولا يتورع عن مطعم حلال .. وإن وجد تمرًا دون خبز أكله .. وإن وجد شواء أكله .. وإن وجد خبز بر أو شعير أكله.. وإن وجد حلوًا أو عسلاً أكله .. وإن وجد لبنًا دون خبز اكتفى به .. وإن وجد بطيخًا أو رطبًا أكله .. لا يأكل متكئًا على خوان .. منديله باطن قدميه .. لم يشبع من خبز بر ثلاثة أيام متوالية .. حتى لقى الله - تعالى - إيثارًا على نفسه .. لا فقرًا ولا بخلاً .. يجيب الوليمة .. ويعود المرضى .. ويشهد الجنائز .. ويمشى وحده بين أعدائه بلا حارس .. أشد الناس تواضعًا وأسكنهم فى غير كبر .. وأبلغهم فى غير تطويل .. وأحسنهم بشرًا .. لا يهوله شيء من أمور الدنيا .. ويلبس مرة شملة .. ومرة يرد حبرة يمانيًا .. مرة جبة صوف .. وما وجد من المباح لبس .. وخاتمه فضة.. يلبسه فى خنصره الأيمن والأيسر .. يردف خلفه عبده أو غيره .. يركب ما أمكنه مرة فرسًا.. ومرة بغلة شهباء .. ومرة حمارًا .. ومرة يمشى راجلاً حافيًا بلا رداء ولا عمامة ولا قلنسوة .. يعود المرضى فى أقصى المدينة .. يحب الطيب ويكره الرائحة الرديئة.. ويجالس الفقراء .. ويؤاكل المساكين.. ويكرم أهل الفضل فى أخلاقهم .. ويتألف أهل الشرف ويبر بهم .. يصل ذوى رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم .. لا يجفو على أحد..

يقبل معذرة المعتذر إليه . . يمزح ولا يقول إلا حقًا . . يضحك من غير قهقهة . .

يرى اللعب المباح فلا ينكره . . يسابق أهله . . وترفع الأصوات عليه فيصبر . . وكان له لقاح وغنم يتقوت هو وأهله من ألبانها . . وكان له عبيد وإماء . . لا يرتفع عليهم فى مأكل ولا ملبس . . ولا يمضى له وقت فى غير عمل له تعالى . . أو فيما لا بد له من صلاح نفسه . . يخرج إلى بساتين أصحابه . . لا يحتقر مسكينًا لفقره وزمانته . . ولا يهاب ملكًا لملكه . . يدعو هذا وهذا إلى اللَّه مستويًا . . قد جمع له السيرة الفاضلة . . والسياسة التامة . . وهو أمى لا يقرأ ولا يكتب . . نشأ فى بلاد الجهل والصحارى فى رعاية الغنم . . يتيمًا لا أب له ولا أم . . فعلمه الله جميع محاسن الأخلاق . . والطرق الحميدة . . واختيار الأولين والآخرين . . وعاقبة النجاة والفوز فى الآخرة . . والغبطة والخلاص فى الدنيا . . ولزوم الواجب وترك الفضول . . وفقنا الله لطاعته فى أمره . . والتأسى به فى فعله . . آمين يا رب العاملين».

ويحدثنا الغزالى بعد ذلك عن تواضع النبى وزهده ومعاملة أصحابه . . وطريقته فى الحديث . . وفى المأكل والمشرب . . وفى معاملة الناس . . بأسلوب سهل بسيط للغاية . . ثم يعطى صورة لصورته وخلقته ﷺ فيقول:

« كان من صفة رسول الله ﷺ أنه لم يكن بالطويل البائن . .

ولا بالقصير المتردد . . بل كان ينسب إلى الربعة إذا مشى وحده . . ومع ذلك فلم يكن يماشيه أحد من الناس ينسب إلى الطول إلا لإطالة رسول الله ﷺ ولربما اكتنفه الرجلان الطويلان فيطولهما . . فإذا فارقاه نسبا إلى الطول . . ونسب هو عليه الصلاة والسلام إلى الربعة . . ويقول ﷺ : «جعل الخير كله فى الربعة» . .

أما لونه : فقد كان أزهر اللون . . ولم يكن بالآدم . . ولا بالشديد البياض . . والأزهر هو الأبيض الناصع الذى لا تشوبه صفرة ولا حمرة . . ولا شيء من الألوان . .

ونعته عمه أبو طالب فقال:

وأبيض يستسقى الغمام وجهه

ثمال اليتامى عصمة للأرامل

ونعته بعضهم . . بأنه مشرب بحمرة . . فقالوا إنما كان المشرب بالحمرة ما ظهر للشمس والرياح . . كالوجه والرقبة . . والأزهر الصافى عن الحمرة ما تحت الثياب منه . . وكان عرقه ﷺ فى وجهه كاللؤلؤ . . أطيب من المسك الأذفر ، وأما شعره فقد كان رجل الشعر حسنه . . ليس بالسبط . . ولا الجعد القطط . . فكان إذا مشطه بالمشط يأتى كأنه حبك الرمل . . وقيل كان شعره يضرب منكبيه . . وأكثر الرواية أنه كان إلى شحمة أذنيه . . وربما جعله غدائر أربعًا تخرج كل أذن من بين غديرتين . . وربما جعل شعره على أذنيه فتبدو

سوالفه تتلألأ . . وكان شيبه فى الرأس واللحية سبع عشرة شعره ما زاد على ذلك . .

وكان ﷺ أحسن الناس وجهًا وأنورهم . . لم يصفه واصف إلا شبههْ بالقمر ليلة البدر . . وكان يرى رضاه وغضبه فى وجهه لصفاء بشرته . . وكانوا يقولون هو كما وصفه صاحبه أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - حيث يقول:

أمين مصطفى للخير يدعو

كضوء البدر زايله الظلام

وكان ﷺ واسع الجبهة . . أفرج الحاجبين سابغهما . . وكان أبلج بين الحاجبين . . كأن ما بينهما الفضة المخلصة . . وكانت عيناه نجلاوين أدعجهما . . وكان فى عينيه تمزج من حمرة . . وكان أهدب الأشفار . . حتى تكاد تلتبس من كثرتها . . وكان أقنى المارن . . أى مستوى الأنف . . وكان مفلج الأسنان . . أى متفرقها . . وكان إذا افتر ضاحكًا افتر عن مثل سنا البرق إذ تلألأ . . وكان من أحسن عباد الله شفتين . . وألطفهم ختم فم . . وكان سهل الخدين صلبهما . . ليس بالطويل الوجه . . ولا المكلثم . . كث اللحية . . وكان يعفى لحيته ويأخذ من شاربه . . وكان أحسن عباد الله عنقًا . . لا ينسب إلى الطول ولا إلى القصر . . ما ظهر من عنقه للشمس والرياح فكأنه إبريق فضة مشرب ذهبًا . . يتلألأ فى بياض الفضة وفى حمرة الذهب . .

وكان ﷺ عريض الصدر . . لا يعد ولحم بدنه بعضًا . . كالمرآة فى استوائها . . وكالقمر فى بياضه . . موصول ما بين لبته وسرته بشعر منقاد كالقضيب . . لم يكن فى صدره ولا بطنه شعر غيره . . وكانت له عكن ثلاث يغطى الإزار منها واحدة ويظهر اثنتان . . وكان عظيم المنكبين أشعرهما . . ضخم الكراديس . . أى رؤوس العظام من المنكبين والمرفقين والوركين . . وكان واسع الظهر . . ما بين كتفيه خاتم النبوة . . وهو مما يلى منكبه الأيمن . . فيه شامة سوداء تضرب إلى الصفرة حولها شعرات متواليات كأنها من عرف فرس . . وكان عبل العضدين والذراعين . . طويل الزندين . . رحب الراحتين . . سائل الأطراف كأن أصابعه قضبان الفضة . . كفه ألين من الخز . . كأن كفه كف عطار طيبًا . . مسها بطيب أو لم يمسها . . يصافحه المصافح فيظل يومه يجد ريحها . . ويضع يده على رأس الصبى فيعرف من بين الصبيان بريحها على رأسه . .

وكان جميل ما تحت الإزار من الفخذين والساق . . وكان معتدل الخلق فى السمن بدينًا فى آخر زمانه . . وكان لحمه متماسكًا . . يكاد يكون على الخلق الأول لم يمسه السمن . .

وأما مشيته ﷺ . . فكان يمشى كأنه يتقلع من صخر . . ويتحدر من صبب . . يخطو تكفيًا . . ويمشى الهوينى بغير تبختر . . والهوينى تقارب الخطا . . وكان عليه الصلاة والسلام يقول:

أنا أشبه الناس بآدم صلى الله عليه وسلم . . وكان أبى إبراهيم صلى الله عليه وسلم أشبه الناس بى خلقًا وخلقًا . .

وكان يقول:

إن لى عند ربى عشرة أسماء . . وأنا أحمد . . وأنا الماحى الذى يمحو بى الله الكفر . . وأنا العاقب الذى ليس بعده أحد . . وأنا الحاشر يحشر الله العباد على قدمى . . وأنا رسول الرحمة . . ورسول التوبة . . ورسول الملاحم . . والمقضى قضيت الناس جميعًا . . وأنا قثم . . قال أبو النجدى : القثم . . الكامل الجامع واللَّه أعلم» . .

هذه هى الصورة التى كان عليها النبى ﷺ . . يصورها بقلمه الإمام الغزالى . . فيجسد كل الملامح . . حتى ليخيل إلى قارئ القرن العشرين أنه يرسم صورة النبى ﷺ «بالكاميرا» وهذه قدرة هائلة على التعبير . .

ثم يتحدث فى نهاية هذا الجزء من الكتاب عن معجزاته وآياته الدالة على صدقه . .

ثم نراه يطنب فى الحديث عن محاسن النبى وأخلاقه . . وطريقته فى المأكل والملبس وسخائه . . وطريقته فى الحديث . . وعندما يضحك وعندما يغضب . . وعفوه وشجاعته ووفائه . . الخ . .

ومن دراساته المهمة التى يتوقف عندها الإنسان عندما يحدثنا عن

«شرح عجائب القلب» .. لأن فى رأيه من لم يعرف قلبه ليراقبه ويراعيه ويترصد لما يلوح من خزائن الملكوت عليه وفيه .. فهو ممن قال اللَّه تعالى فيه :

﴿ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الحشر: ١٩]

فمعرفة القلب وطبيعة أوصافه أصل الدين .. وأساس طريق السالكين ..

* * * * *

ونرى الغزالى يتحدث عن خاصية قلب الإنسان .. ويفرق بين الروح والقلب والنفس .. ثم يقسم مراتب الإيمان إلى ثلاث مراتب ..

المرتبة الأولى : إيمان العوام وهو إيمان التقليد المحض ..

المرتبة الثانية : إيمان المتكلمين .. وهو ممزوج بنوع استدلال .. ودرجته قريبة من درجة العوام ..

المرتبة الثالثة : إيمان العارفين وهو المشاهد بنور اليقين ..

وقد أعجبنى بحث للدكتور / عبدالحليم محمود بعنوان «الإمام الغزالى ومعرفة الغيب» .. وهو فى هذا البحث يقول إن الغزالى لا يرى فى نهج المتكلمين ما يؤدى إلى كشف الحقائق .. إنه يقول

حرفيًا عن هذا الكلام:

« وأما منفعته فقد يظن أن فائدته كشف الحقائق . . ومعرفتها على ما هى عليه . . وهيهات فليس فى الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف . .

ولعل التخبط والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف . . وهذا إذا سمعته من محدث أو حشوى . . ربما يخطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا . . فاسمع هذا ممن خبر الكلام ثم قلاه . . بعد حقيقة الخبرة . . وبعد التغلغل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين . . وجاوز ذلك إلى التعمق فى علوم أخر تناسب نوع الكلام ، وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجة مسدود » . .

ويرى فى موضع آخر أن المتكلم لا يزيد على العامى إلا فى صنعة الكلام . . ولأجله سميت صناعته كلامًا . .

أما المرتبة العليا فإنها الهدف الأسمى . . وهو مقصد الطالبين ومطمح نظر الصديقين . . إنها مشاهدة روحية . . إنها يقين مطلق . . إنها المشاهدة . . بنور اليقين . .

ولكن مشاهدة ماذا؟

ويقين فى ماذا ؟

وما هو موضع هذه المرتبة . . إنه - إذا أردنا الإجمال - الغيب . . أما إذا أردنا شيئًا من التفصيل فإنه فى أمور كثيرة كأنه يسمع

المعارف من قبل أسمائها فيتوهم لها معانى مجملة غير متضحة . . فتتضح إذ ذاك . . وتحصل المعرفة الحقيقية بذات الله سبحانه وتعالى . . وبصفاته الباقيات التامات وبأفعاله وبحكمته فى خلق الدنيا والآخرة ووجهة ترتيبه الآخرة على الدنيا . .

ولمعرفة معنى النبوة . . والنبى . . ومعنى الوحى . . ومعنى الشيطان . . ومعنى لفظ الملائكة . . وكيفية معاداة الشياطين للإنسان . . وكيفية ظهور الملك للأنبياء وكيفية وصول الوحى إليهم والمعرفة بملكوت السموات والأرض . . ومعرفة الغيب . . وكيفية تصادم جنود الملائكة والشياطين فيه . . ومعرفة الفرق بين لمة الملك ولمة الشيطان . . ومعرفة الآخرة . . والجنة والنار . . وعذاب القبر والصراط . . والميزان . . والحساب . . ومعنى قوله تعالى:

﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ ﴾ [الإسراء: ١٤].

ومعنى قوله تعالى:

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

ومعنى لقاء الله - عز وجل - والنظر إلى وجهه الكريم . . ومعنى القرب منه . . والنزول فى جواره . . ومعنى حصول السعادة . . بمرافقة الملأ الأعلى أو مقارنة الملائكة والنبيين . . ومعنى تفاوت أهل الجنان حتى يرى بعضهم البعض . . كما يرى الكوكب

الدرى فى السماء . . إلى غير ذلك مما يطول تفسيره . .

وذلك بعض موضوع الغيب الذى يتطلع إلى معرفته دون جدوى المتكلمون والفلاسفة . . ولأنهم لم يتخذوا إليه السبيل الصحيح فقد اختلفوا فيه . .

لقد اختلفوا فى معانى هذه الأمور بعد التصديق بأصولها، مقامات شىء . .

فبعضهم يرى أن جميع ذلك أمثلة . . وأن الذى أعده الله لعباده الصالحين ما لا عين رأت . . ولا أذن سمعت . . ولا خطر على قلب بشر . . وأنه ليس مع الخلق من الجنة إلا الصفات والأسماء . .

وبعضهم يرى أن بعضها أمثلة . . وبعضها يوافق حقائقها المفهومة من ألفاظها . .

وكذلك يرى بعضهم أن منتهى معرفة الله - عز وجل - الاعتراف بالعجز عن المعرفة . .

وبعضهم يرى أمورًا عظيمة فى المعرفة بالله عز وجل . .

وبعضهم يقول : حد معرفة اللَّه عز وجل ما انتهى إليه اعتقاد جميع العوام . . وهو أنه موجود عالم قادر سميع بصير متكلم . .

اختلف الناس هذا الاختلاف لأنهم لم يتبعوا النهج الصحيح فى معرفة الغيب . . وهذا النهج الصحيح إنما هو جلاء البصيرة . . ولو اتبعوا الكشف عن البصيرة لارتفع الغطاء حتى تتضح للإنسان جلية

الحق فى هذه الأمور اتضاحًا يجرى مجرى العيان الذى لا يشك فيه.. وهذا ممكن فى جوهر الإنسان «الإحياء» أهذا ممكن حقًا فى جوهر الإنسان؟

إنها دعوى من الإمام الغزالى تحتاج إلى إثبات .. وهى دعوى ينكرها الكثيرون..

ولكن الإمام الغزالى يرى أن الدليل القاطع .. الذى لا يقدر أحد على جحده أمران أحدهما عجائب الرؤيا الصادقة .. فإنه ينكشف بها الغيب .. وإذا جاز ذلك فى النوم فلا يستحيل أيضًا فى اليقظة .. فلم يفارق النوم اليقظة إلا فى ركود الحواس .. وعدم اشتغالها بالمحسوسات .. فكم من مستيقظ غائص لا يسمع ولا يبصر لاشتغاله بنفسه..

والثانى : إخبار رسول الله ﷺ عن الغيب وأمور فى المستقبل.. وإذا جاز ذلك للنبى ﷺ جاز لغيره .. إذ النبى عبارة عن شخص كوشف بحقائق الأمور .. وشغل بإصلاح الخلق .. فلا يستحيل أن يكون فى الوجود شخص مكاشف بالحقائق .. ولا يشتغل بإصلاح الخلق .. وهذا ما يسمى نبيًا .. بل يسمى وليًا .. فمن آمن بالأنبياء وصدق بالرؤيات الصحيحة لزمه لا محالة أن يقر بالبصيرة .. أو بتعبير آخر أن يقر بباب القلب ينفتح على عالم الملكوت .. هو باب الإلهام والنفث فى الروع والوحى..

والإمام الغزالى يتشبث بالرؤيا كبرهان ودليل على أن هناك آلة

للمعرفة غير الحس والعقل، ويردد ذلك فى كثير من كتبه .. إنه يتحدث فى المنقذ عن النبوة فيقول:

« وقد قرب اللَّه - تعالى - ذلك على خلقه بأن أعطاهم أنموذجًا من خاصيته النبوة وهو النوم .. إذا النائم يدرك ما سيكون من الغيب إما صريحًا وإما فى كسوة مثال يكشف عنه التعبير .. وهذا لو لم يجربه الإنسان من نفسه .. وقيل له : إن من الناس من يسقط مغشيًا عليه كالميت .. ويزول عنه إحساسه وسمعه وبصره فيدرك الغيب .. لأنكره وأقام البرهان على استحالته .. وقال القوى الحساسة أسباب الادراك .. فمن لا يدرك الأشياء مع وجودها .. وحضورها .. فبألا يدركها مع ركودها أولى وأحق .. وهذا نوع قياس يكذبه الوجود والمشاهدة» ..

ولكن الغزالى لا يكتفى بهذين الوجهين من الاستدلال .. بل يأتى بشواهد الشرع .. ويذكر التجارب والحكايات .. أما الشواهد - فيما يرى - فهى قوله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وقوله سبحانه:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال: ٢٩]

قيل نور يفرق به بين الحق والباطل.. ويخرج به من الشبهات..

وقوله ﷺ :

« من عمل بما علم ورثه اللّه علم ما لا يعلم »..

وسئل ﷺ عن قوله تعالى:

﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

أما هذا الشرح فقال:

«هو التوسعة .. إن النور إذا قذف به فى القلب اتسع له الصدر وانشرح»..

وقال عليه الصلاة والسلام:

«إن من أمتى محدثين ومعلمين ومكلمين، وإن عمر ملهم»..

والمحدث هو الملهم .. والملهم هو الذى انكشف له الحق فى باطن قلبه من جهة الداخل لا من جهة المحسوسات الخارجية..

والقرآن مصرح بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف .. ولم يكن علم الخضر عليه الصلاة والسلام علما حسيًا ، أو عقليًا ، وإنما هو العلم الربانى.. وإليه الإشارة .. ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]..

كيف تنجلى البصيرة؟

كيف يتأتى الكشف والإلهام والنفث فى الروع؟

كيف تتأتى معرفة الغيب معرفة مباشرة؟

إن الطريق إلى ذلك إنما هو تقديم المجاهدة ، ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها . . والإقبال بكل الهمة على اللَّه تعالى . .

ومهما حصل ذلك كان اللَّه هو المتولى لقلب عبده . . والمتكفل بتنويره بأنوار العلم . .

وإذا تولى اللَّه أمر القلب فاضت عليه الرحمة . . وأشرق النور فى القلب . . وانشرح الصدر وانكشف له سر الملكوت وانقشع عن وجه القلب حجاب العزة بلطف الرحمة . . وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية . .

فليس على العبد إلا الاستعداد بالتصفية المجردة . . وإحضار الهمة مع الإرادة الصادقة والتعطش التام . . والترصد بدوام الإنتظار لما يفتحه اللَّه - تعالى - من الرحمة . .

فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر وفاض على صدورهم النور لا بالتعلم والدراسة والكتابة والكتب . . بل بالزهد فى الدنيا . . والتبرى من علائقها . . وتفريغ القلب من شواغلها . . والإقبال بالكلية على اللَّه تعالى . . فمن كان للَّه كان اللَّه له . .

وهو بفعله هذا يصير متعرضًا لنفحات رحمة الله . . وليس له اختيار فى استجلاب هذه النفحات . . وليس له إلا الانتظار لما يفتح الله من الرحمة . . كما فتحها على الأنبياء والأولياء بهذه الطريقة . .

وإذا صدقت إرادته . . وصفت همته . . وحسنت مواظبته تلمع لوامع الحق فى قلبه . . ويرتفع الحجاب بلطف خفى من اللّه تعالى . . فينكشف له الغيب ويحصل له اليقين (الإحياء) . .

وهذا النهج الذى رسمه الإمام الغزالى له آثار عميقة بالنسبة إلى الفرد وبالنسبة إلى المجتمع . . وبالنسبة إلى الدين . .

وبعد هذا الشرح البسيط الذى شرحه الإمام الأكبر فى توضيح وجهة نظر الغزالى . .

فالغزالى كما عرفنا قد عرف طريقه . . وطريقه هو طريق أهل التصوف . . ونرى ذلك وصفًا مفصلاً فى كتابة الإحياء . .

وإذا ما عرجنا مع أفكاره . . رأيناه يفصل كل شىء من العادات الحسنة التى ترفع من مستوى الإنسان أمام نفسه وأمام خالقه . . وأمام المجتمع . .

وإذا كان من الصعب تلخيص ما كتب فهذا أمر فى غاية الصعوبة . . ولكن سنقف أمام لقطة من لقطاته الأخلاقية . . وهو يرسم كيف يسير الإنسان على هدى من دينه . . مستمدًا كل هذه الأخلاق الكريمة . . لا من فلاسفة الإغريق . . ولا من شطحات الفلاسفة . . ولا من خيال الشعراء . . ولكن من وحى الرسالة الإسلامية الخالدة . .

إنه مثلاً يتحدث عن اللسان . . كيف يكون فيه السعادة أو الشقاء . . الأمل والألم . . القدوة الحسنة أو الشر المستطير . .

وتعالَ معى فى جولة مع أفكاره حول هذا العضو فى الإنسان وما له من أثر فى حياته..

اعلم أن خطر اللسان عظيم .. ولا نجاة من خطره إلا بالصمت.. فلذلك مدح الشرع .. وحث عليه .. قال ﷺ :

« من صمت نجا »..

وقال ﷺ:

« الصمت حكم وقليل فاعله » .. أى حكمة وحزم ..

وروى عبداللَّه بن سفيان عن أبيه قال:

قلت يا رسول اللّه أخبرنى عن الإسلام بأمر لا أسأل عنه أحدًا بعدك ..

قال : قل آمنت باللَّه ثم استقم..

قال : قلت : فما التقى؟

فأومأ بيده إلى لسانه..

وقال عطيه بن عامر:

قلت : يارسول اللَّه ما النجاة؟

قال : أمسك عليك لسانك .. وليسعك بيتك وابك على خطيئتك ..

وقال سهل بن سعد الساعدى:

قال رسول اللّه ﷺ : من يتكفل لى بما بين لحييه ورجليه أتكفل له بالجنة..

وقال ﷺ : من وقى شر قبقه وذبذبه ولقلقه فقد وقى الشر كله.. القبقب (البطن) .. والذبذب (الفرج) واللقلق (اللسان)..

فهذه الشهوات الثلاث بها مهلك أكثر الخلق .. ولذلك اشتغلنا بذكر آفات اللسان لما فرغنا من ذكر آفة الشهوتين .. البطن والفرج..

وقال رسول اللّه ﷺ عن أكبر ما يدخل الناس الجنة فقال:

« تقوى اللّه .. وحسن الخلق»..

وسئل عن أكبر ما يدخل النار فقال:

الأجوفان .. الفم والفرج .. فيحتمل المراد الفم آفات اللسان لأنه محله .. ويحتمل أن يكون المراد به البطن منفذه..

فقد قال معاذ بن جبل:

قلت : يا رسول اللّه أنأخذ بما نقول؟

فقال : ثكلتك أمك يا ابن جبل .. وهل يكب الناس فى النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم؟!

ويقول فى هذا الفصل أيضًا:

وروى أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - رأى أبا بكر الصديق - رضى الله عنه - وهو يمد لسانه بيده . . فقال : ما تصنع ياخليفة رسول اللَّه ؟!

قال : هذا أوردنى الموارد . . إن رسول اللَّه ﷺ قال: ليس شىء إلا ويشكو إلى اللَّه اللسان على صدقه . .

وفى هذا الباب يورد أحاديث كثيرة عن الرسول ﷺ فى فضل الصمت . . وألا يكون اللسان سببًا فى خلق المشاكل للإنسان فى دنياه . . وأن يكب بسببه فى الجحيم أيضًا . .

وما دام اللسان هو الذى يقود الإنسان إلى الخير أو الشر . . فإنه يتحدث عن آفات اللسان . . فيورد فصولاً . . ويفصلها تفصيلاً كاملاً حول هذه الآفات . . نلخصها فيما يلى:

- الكلام فيما لا يعنيك . .

- فضول الكلام . . وهو أيضًا مذموم . . وهذا يتناول الخوض فيما لا يعنى والزيادة فيما يعنى على قدر الحاجة . .

ولنسر أيضًا مع حجة الإسلام الإمام الغزالى لنغترف من هذا المعين الذى لا ينضب . . معين هذا العلم الفياض . . إننا مثلاً عندما نتصفح الإحياء . . نقف عند الفصل الذى أورده كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا . . فهو يتحدث مثلاً عن شواهد الشرع فى حب اللَّه - تعالى - فيقول:

«اعلم أن الأمة مجتمعة على أن الحب للَّه تعالى ورسوله ﷺ فرض . . وكيف يفرض مالا لا وجود له؟! وكيف يفسر الحب بالطاعة . . والطاعة تبع الحب وثمرته؟! فلا بد أن يتقدم الحب ثم بعد ذلك يطيع من أحب . . ويدل على إثبات الحب للَّه تعالى قوله عز وجل ﴿ **يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ** ﴾ [المائدة: ٥٤] . .

وقوله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ** ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وهو دليل على إثبات الحب . . وإثبات التفاوت فيه . . وقد جعل رسول الله ﷺ الحب للَّه شرطًا من شروط الإيمان فى أخبار كثيرة . .

إذ قال أبو رزين العقيلى:

« يا رسول اللَّه . . ما الإيمان ؟ »؟!

قال : « أن يكون اللَّه ورسوله أحب إليك مما سواهما» . .

وفى حديث آخر:

« لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين » . . وفى رواية « ومن نفسه » . .

وقال رسول الله ﷺ فى دعائه:

« اللهم ارزقنى حبك . . وحب من أحبك . . وحب من يقربنى إلى حبك . . واجعل حبك أحب إلىَّ من الماء البارد » . .

ثم يروى حكايات حدثت مع النبى . . ومع أنبياء اللَّه . . توضح للقارئ الفائدة العظمى التى يجنيها العبد المؤمن بحبه للَّه ورسوله:

فيورد مثلاً : أن أعرابيًا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال:

« يا رسول اللَّه متى الساعة؟» . .

قال: «وماذا أعددت لها؟»

فقال: «ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام . . إلا أنى أحب اللَّه ورسوله» . .

فقال رسول اللَّه ﷺ :

« المرء مع من أحب» . .

ثم يتحدث عن منازل الحب والمحبين . . وأرقى أنواع هذا الحب الذى يحب اللَّه حبًا فى ذات اللَّه . . لا طمعًا فى جنة . . ولا خوفًا من نار . . كحب رابعة العدوية التى عبرت عن هذا المعنى فى قولها:

أحبك حبين حب الهوى
وحبًا لأنك أهل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى
فشغلى بذكرك عمن سواكا
وأما الذى أنت أهل له
فكشفك لى الحجب حتى أراكا

فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى

ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

والغزالى يأخذنا فى رحلته تلك مع الحب .. حب العارفين باللَّه.. فيقول:

« فمقصد العارفين كلهم وصله ولقاؤه .. فهى قرة العين .. التى لا تعلم نفس ما أخفى لهم منها .. فإذا حصلت امحقت الهموم.. والشهوات كلها .. وصار القلب مستغرقًا بنعيمها .. فلو ألقى فى النار لم يحس بها لاستغراقه .. ولو عرض عليه نعيم الجنة لم يلتفت إليه لكمال نعيمه .. وبلوغه الغاية التى ليس فوقها غاية.. وليت شعرى من لم يفهم إلا حب المحسوسات كيف يؤمن بلذة النظر إلى وجه اللَّه تعالى ؟

وماله صورة ولا شكل .. وأى معنى لوعد اللَّه - تعالى - به عباده.. وذكره .. أنه أعظم النعم .. بل من عرف اللَّه عرف أن اللذات المقرنة بالشهوات المختلفة كلها تنطوى تحت هذه اللذة كما قال بعضهم :

كانت لقلبى أهواء مفرقة

فاستجمعت مذ رأتك العين أهوائى

فصار يحسدنى من كنت أحسده

وصرت مولى الورى مذ صرت مولائى

تـركـت للنـــاس دنيـــاهـم ودينـهم
شغـــلاً بذكـــرك يا ديـنى ودنيـــائى

ولذلك قال بعضهم :

وهجـــره أعظـــم مـــن نـــار
ووصـــله أطـيب مـــن جنـــة

وما أرادوا بهذا إلا إيثار لذة القلب فى معرفة اللَّه - تعالى - على لذة الأكل والشرب والنكاح . . فإن الجنة معدن تمتع الحواس . . فأما القلب فلذاته فى لقاء اللَّه فقط» . .

إن الحديث مع الغزالى وعن الغزالى ممتع للغاية . . وكل صفحة من صفحات كتبه عبارة عن سياحة رائعة فى فهم الدين بطريقة واعية مستنيرة . . إنه يحدثك عن القبر وعذابه . . والخوف من اللَّه . . فترتعد الفرائص . . ويشعر القلب برهبة الخوف من اللَّه . . وضرورة تجنب محارمه حتى نصل إلى النعيم الذى وعد به عباده المتقين.

ويحدثك عن الفضائل التى يجب أن يسير على هداها الإنسان . . فيحن الإنسان أن يكون هذا المثل العظيم لما ينبغى أن يكون عليه الإنسان . .

ويحدثك عن الجنة ونعيمها . . فيكاد الإنسان يتذوق ما فيها من نعيم أعد للمتقين . . ويكاد يتجسم أمام الإنسان صورة عن هذا العالم الآخر وما فيه من طيبات اللَّه وأنعمه . .

ثم يحدثنا عن الحب والزهد . . والتصوف . . وحب اللّه . . فيكاد الإنسان أن يطير شوقًا . . وأن يصبح واحدًا من هؤلاء الذين لا يلهيهم لهو أو تجارة . . أو جاه أو سلطان عن معرفة اللّه . . والقرب منه ليتذوق مثل ما يتذوق هؤلاء الذين أداروا ظهورهم للدنيا الفانية واتجهوا بكل كيانهم إلى اللّه جل علاه . .

إن للغزالى هذه القدرة العجيبة فى الترغيب والترهيب . . بما يسوقه من حجج مستمدة من القرآن الكريم . . ومن سنة النبى ﷺ إنه بحق حجة الإسلام . .

* * * * *